" فرنسا الكولونيالية و سؤال الهوية في منطقة القبائل "

الباحث: حمدي عيسى الدكتور: بلخير بومحراث

جامعة عبد الحميد بن باديس - مستغانم

ملخص:

يمثل سؤال الهوية في منطقة القبائل إحدى تجليات صراع النخب السياسية والثقافية في مجتمع "ما بعد الكولونيالية" ، وإحدى تمظهرات التباين القائم بين ما هو (سياسي –ايديلوجي) وما هو (ثقافي-اجتماعي) في المجتمع الذي تنشده الدولة – الأمة التي جاءت مع الحداثة الغربية.

على مر العصور حافظت " منطقة القبائل " إلى حد ما على استقلاليتها و خصوصيتها الثقافية و الاجتماعية والسياسية مما دفع بالدخلاء إلى التعامل معها بحذر ، إلى أن جاء الاستعمار الفرنسي الذي استطاع أن يتوغل لأول مرة في هذه المنطقة ويستقر فيها ويستغل خصوصيتها ويستثمر فيها ضمن ما عُرف "بالسياسة القبائلية" فما هي أبعاد هذه السياسة إن وُجدت وما هي عوائدها على هذه المنطقة ؟

الكلمات المفتاحية: الكولونيالية – الهوية – منطقة القبائل– السياسة القبائلية

Abstract :

France's colonial and the identity issue in the Kabylian region

The issue of identity in the " Kabylian region " represents one of the manifestations of political and cultural conflict elites in the " post-colonial " society , and one of the manifestations of the discrepancy between what is political-ideological and what is - social – cultural in society desired by the state - Nation that came with Western modernity .

Over the centuries, " Kabylian region " maintained to some extent on its autonomy and cultural social and political specificity , what constraint outsiders to be handled with care , until French colonialism , which was able to cut deep for the first time in this region and settles in and exploits in its specificity and invest in within what is known as " Kabylian policy " , what are the dimensions of this policy , if it exists , and what are its repercussions on this region ?

key words : colonialism – identity – Kabylian region – Kabylian policy

résumé :

la quête identitaire en Kabylie, représente l'une des manifestations du conflit des élites politiques et culturelles de la société « postcoloniale », et l'une des affirmations de la disparité entre ce qui est « politiquo-idéologique » et ce qui est « socio-culturel » , dans la société envisagée par l'Etat-nation qu'a engendré la modernité occidentale.

Au fil des temps « la Kabylie » a conservé son autonomie et sa spécificité culturelle, sociale et politique, ce qui a contraint les intrus à s'entreprendre avec elle avec méfiance, jusqu'à l'avènement du colonialisme Français qui a pu la franchir et s'y installer, tout en s' y investissant dans le cadre de ce qui est appelée communément « politique Kabyle » , quels sont donc les dimensions de cette politique si elle existe , et quelles sont ses répercutions sur cette région ?

Mots clés : colonialisme, identité, Kabylie, politique Kabyle

تحديد المفاهيم:

الاستعمارية أو الكولونيالية: تطلق على السيطرة والتأثير الذي تفرضه الدولة المستعمرة على الكيان التابع لها، والنظام أو السياسة التي تنتهجها للحفاظ على تلك السيطرة. كما تعرّف (الكولونياليّة) بمعنى (الهيمنة والسّيطرة) لدولةٍ ما على أراضي دولٍ أخرى وشعوبها، وقد درجتْ التّرجمات العربيّة على توصيفها (بالاستعمار والاستعماريّة). وقد نشأ المصطلح بالتوازي مع ازدهار الرّأسماليّة كقوّة عملاقة صاعدة في العالم الغربي، والغزو الأوربي لآسيا وإفريقيا، ثمّ بلوغه المرحلة الأعلى، مع القطب الأمريكي المتعاظم، والمسمّاة ب (الإمبرياليّة) إذ وجد البعض فيها رديفاً له. وثمّة من ربط المفهوم ربطاً وثيقاً مع حركة التّنوير والاستكشاف والعقل، المرافقة لتطوّر العلوم في القرن الثّامن عشر. والسّياقات الثّقافيّة المرافقة لها، وما يرتبط منها مع قضايا جوهريّة تتعلّق بالهويّة والبنية الاجتماعيّة[1].

الهوية : يرى المفكر الفرنسي " أليكس ميكشللي " أن الهوية عبارة عن " منظومة متكاملة من المعطيات المادية والنفسية و المعنوية و الاجتماعية ، تنطوي على نسق من عمليات التكامل المعرفي ، و تتميز بوحدتها التي تتجسد في الروح الداخلية التي على خاصية الإحساس بالهوية والشعور بها ، فالهوية هي وحدة المشاعر الداخلية، التي تتمثل في وحدة العناصر المادية، والتمايز، والديمومة، و الجهد المركزي .وهذا يعني أن الهوية هي وحدة من العناصر المادية والنفسية المتكاملة، التي تجعل الشخص يتمايز عمن سواه، ويشعر بوحدته الذاتية "[2]

منطقة القبائل : في القديم و حسب بعض الكتابات التاريخية ، كانت تمتد منطقة القبائل من وادي الشلف غربا إلى عنابة شرقا ، ثم تقلصت بفعل التثاقف و الاحتكاك مع الوافدين لتنحصر في الرباعي المشمول بين دلس وعومال (البويرة) و سطيف إلى القل ، أما منطقة القبائل التي نعنيها نحن بالتعبير الحديث فهي الولايات الثلاث المعروفة والمشكلة لمنطقة القبائل الحالية و هي تيزي وزو وبجاية والبويرة.

[1] . https://ar.wikipedia.org
[2] www.hwc-pal.org

السياسة القبائلية : نقصد بها تلك الآليات و الميكانيزمات التي خصت بها الإدارة الاستعمارية الفرنسية منطقة القبائل على الصعيد العسكري ، الإداري ، القانوني ، الثقافي و التعليمي ، ضمن السياسة الكولونيالية العامة الموجهة للشعب الجزائري، وذلك بغرض تحقيق الإدماج الكلي للقبائل في الحظيرة الثقافية الفرنسية .

فرنسا الكولونيالية و سؤال الهوية في منطقة القبائل

إن مطارحة موضوع علاقة فرنسا بسؤال الهوية في منطقة القبائل، يسوقنا حتما إلى إثارة قضايا خلافية، غالبا ما يطبعها التعصب الإيديولوجي و القفز على الحقائق السوسيو- ثقافية للمجتمع الجزائري ، فنجد أن الاصطفاف حول هذه القضية قد أفضى إلى تَشَكُّل معسكرين ، الأول يعتقد بوجود سياسة فرنسية بربرية (قبائلية) إبان الاستعمار ، فضَّلت ساكنة منطقة القبائل عن باقي "**الأهالي**" آنذاك و عاملتهم بنوع من التمييز ووظفتهم لإحكام السيطرة على البلاد، أما الثاني فهو معسكر يرى أنه لم تكن هنالك أية سياسة فرنسية بربرية إبان الاستعمار ، بل بالعكس من ذلك، أن فرنسا قد عمدت إلى تشتيت "**الأمازيغ**" "**القبائل**" و إضعاف هويتهم بتكسير بُنَاهُم الاجتماعية واقتلاعهم من أرضهم و إرغامهم على الهجرة و الاغتراب و ما ينجرُّ عنه من سلخ لهويتهم.

من هنا سنحاول مناولة هذا الموضوع الشائك و الملغم بقدر من الموضوعية. وستتمحور إشكالية دراستنا حول الأسئلة التالية:

ما هو الدور الذي لعبته فرنسا في إبراز أو تأجيج المسألة الهوياتية في منطقة القبائل إن وُجدت أصلا؟ هل حقا كانت لفرنسا "**سياسة مميزة**" تجاه ساكنة منطقة القبائل ؟

و للإجابة عن هذه الأسئلة ، تبنينا مقاربة آنتروبولوجية –تاريخية ، بمحاولة مساءلة التاريخ واستقراء الوقائع السوسيولوجية وإعادة بناء المشهد الاجتماعي محاولة منا لفهم حيثياته وتفسيرها والوقوف ولو على جزء بسيط من الحقيقة.

منطقة القبائل قبل الغزو الفرنسي:

يجمع علماء الاجتماع والإناسة ، أن أهم ما جاءت به الحداثة الغربية هو مفهوم الدولة التي تقوم على مبدأ التوحيد والتأحيد، و ذلك بتوحيد الجهود و المساعي لبناء الدولة بتأحيد النظم الفكرية ، القانونية ، الثقافية ، الاجتماعية والسياسية وحتى الدينية.

هذه الدولة التي غيَّرت بنية المجتمعات التقليدية الغربية من مجتمعات زراعية وإقطاعية لمجتمعات صناعية ليبرالية قامت على **مركزية الإنسان الغربي**، الذي أعطى لنفسه الحق في التصرف في مصير المجتمعات غير الغربية و"**الوحشية**" في نظره بدعوى "**مهمة التمدين**"« **Mission Civilisatrice** »، فكانت الجزائر من أولى هذه الدول التي تعرَّضَتْ لصدمة الاستعمار الاستيطاني.

و أمام هذا الوضع الجديد، وجد المستعمِر الغربي المتفوق ثقافيا وحضاريا، نفسه أمام مجتمعات مجهولة المعالم، مما يستدعي دراسة مُعَمَّقة و شاملة لبناه الفكرية ، الاجتماعية ، السياسية و الدينية، بغرض إحكام السيطرة عليه . ومنه نجد أن الاستعمار الفرنسي قد شكَّل لجانا للاستكشاف العلمي للجزائر و لساكنتها. و لكن قبل ذلك وجدنا أن أولى الدراسات أو بالأحرى التقارير التي قُدّمت حول الجزائر و بالخصوص حول منطقة القبائل هي التي قام بها الرحَّالة الفرنسيون خلال القرن الثامن عشر و ذلك لاستكشاف البلاد والعباد.

ففي تقرير للرحَّالة "**Peysonnel**" قدَّمه في 19 جوان1725 يقول :" مررنا عبر ثلاث قرى عصرية يسكنها "عرب" يُسَمَّون (قبايل) ، ليس لها لا زعيم ... و لا قائد عسكري ، كل واحد منهم سيِّد و حُرٌّ في اختياراته، و هم في غالب الأحيان " لصوص" أو بالأحرى حيوانات ضارية (bêtes féroces) تسكن تلك الجبال ... و الزواوة ليسوا إلا (قبايل)، أو هذا الصنف (espèce) المتوحش و هم رجال لا يُروَّضون"[1] ، ويضيف بعيدا في تقريره:" كل "عرب" هذه البلاد (و هو يقصد القبائل) يسكنون في أكواخ"[2].

أما الرحَّالة (**Desfontaines**) فيصف أحوال جبال جرجرة وحالة اللاأمن التي تسود فيها في تقرير بعثه في 18 سبتمبر1785 بقوله:" لكي لا نعرض أحدا من قافلتنا للسرقة من طرف قبائل جرجرة الذين لا يُرَوَّضون ... و للعرب (و هو يقصد القبائل) هنا عدد كبير من القرى....و هم يقاتلون بشجاعة ولا يدفعون شيئا للأتراك ويسلبون القوافل"[3]..

من خلال هذين التقريرين المعروضين على سبيل المثال لا الحصر ، نستخلص أن نظرة الفرنسيين للمجتمع الجزائري قبل احتلال الجزائر كانت شمولية و تجهل المكونات

[1] A Berbrugger, **voyage au camp d'Abdelkader**, bibliothèque royale, Paris, 1839, p 65
[2] A Berbrugger , OP.CIT, P 75
[3] A Berbrugger , OP.CIT, p 76

السوسيو- ثقافية للشعب الجزائري، إذ كانت تنطلق من عقدة الموروث التاريخي الغربي الذي يضع العرب المسلمين برسالتهم الحضارية الغالبة آنذاك، في وجه الغرب الصليبي المغلوب، فكان الغرب ينظر إلى العالم الإسلامي كوحدة **حضارية** مُوَحَّدة دينيا و لغويا و سياسيا و لا يُفَرِّق بين مختلف العناصر الإثنية التي اندمجت لتشكل فسيفساء الأمة الإسلامية .

كما أن نظرتهم "**للقبائل**" بالخصوص يشوبها الضيم، و أقل ما يمكن قوله هو كونها أحكام قيمية تعميمية تفتقر إلى أدوات المنهج العلمي، إذ كيف يمكن تعميم صفة "التوحُّش" وخاصة"اللُّصوصية" التي يقول عنها "**آجيرون**" :" كانت لِلُصوصيةِ "القبائل"شهرة كبيرة"[1] - على كافة " **القبائل**" ، دون القيام بدراسات مسحية تشمل كافة سكان هذه البطون، و ذلك عِلمًا أن الكثافة السُكَّانية كانت عالية في هذه المناطق ما يعطي عددا كبيرا من القرى و المداشر، وثانيا تَوزُّعها على مساحات جبلية وعرة و شاسعة تتطلب إمكانات مادية و إطارا زمنيا كبيرا.

منطقة القبائل في الفترة الأولى من الغزو(الحكم الإمبراطوري – العسكري):

لقد أفرز الغزو الفرنسي للجزائر حالة من التشنج و الاضطراب لدى ساكنة الجزائر، التي انتفضت غيرَ ما مرة في وجه "**الرومي** " الذي شرع في ابتلاع البلاد شيئا فشيئا. ولقد كانت إستراتيجية الاحتلال الفرنسي تندرج ضمن مشروع "**نابليون الثالث**" الذي يقضي بإنشاء المملكة العربية في الجزائر، و يظهر هذا جليا في العديد من كتاباته وخطاباته لجنرالاته ، نذكر على سبيل المثال لا الحصر ، خطابه الذي أرسله لأحد جنرالاته و هو " **ماكماهون**" يقول فيه :" إن الجزائر مملكة عربية ، مستعمرة أوروبية و معسكر فرنسي " و في رسالة أخرى موجهة لنفس الجنرال بعنوان " سياسة فرنسا بالجزائر" زَكَّى فيها "**نابليون**" نظام المملكة العربية و هذا ما يؤكِّده "**Tournier** " بقوله :" إن الفكرة الاستعمارية الوحيدة المطبقة ميدانيا ، تمثَّلت في تأسيس المملكة العربية في الإمبراطورية الفرنسية (le royaume arabe dans l'empire Français)، لقد تركنا في نفس الأرض التي نحيا فيها فريقا من المستوطنين أغلبهم فرنسيون دون اندماج من جهة

[1] Ageron Ch R, les **Algériens musulmans et la France (1871-1904)**,T1,PUF,2005 ,p 885

، و من جهة أخرى فريقا من العرب بأخلاقهم و عاداتهم و إسلامهم و أفكارهم المسبقة عنا "[1] .

و في هذه المرحلة التي امتدَّت من الغزو إلى غاية سقوط الإمبراطورية ، تولى العسكر تسيير شؤون الجزائر ، و أمام رغبتهم في إحكام السيطرة على كافة التراب الجزائري و ترويض شعبه، تَحَتَّم عليهم دراسة البُنى الفكرية ، الاجتماعية والسياسية لهذا المجتمع " **الأهلي**" مما استدعى استنفار الباحثين الأكاديميين منهم و العسكريين لكشف اللثام عن هذا المجتمع " **المتوحش**" و الوقوف على نقاط ضعفه لاستغلالها و تضخيمها ، و على نقاط قوته لإطفائها أو للحدِّ من فاعليتها .

فتوالت الدراسات حول الشعب الجزائري عامة و منطقة القبائل خاصة، إذ نجد العديد من الباحثين قد اِستَهوَتهم هذه المنطقة لما تحمله من خصوصيات ثقافية و اجتماعية، و من أهم الدراسات التي أُجريت على **منطقة القبائل** نجد كلا من:

1. Daumas : la grande **Kabylie** étude historique 1847
2. Carette : étude sur la **Kabylie** proprement dite 1848.
3. Devaux : les **Kbails** du Djurdjura 1859
4. Warnier : l'Algérie devant l'empereur 1865
5. Duval : la politique de **Napoléon** en Algérie 1866
6. Chatelin : en Algérie، en **Kabylie** et les oasis 1886
7. Charveriat : huit jours en **Kabylie** 1889
8. Hanoteau et letourneux : la **Kabylie** et les coutumes kabyles 1893

هذا بالإضافة إلى الدراسات التي قام بها، "**ماسكوري**" ، "**روني باسي**"**و** " **غابريال غامبس**" و آخرون فيما بعد. وهي دراسات قامت على الإثنولوجيا و الاثنوغرافيا لسكان الجزائر عامة و ساكنة **منطقة القبائل** خاصة . و كانت تهدف هذه الدراسات إلى التعمق في فهم المعاش القبائلي بهدف إدماجها في الكيان الفرنسي، وفي هذا يقول أحد المنظرين

[1] Tournier (CH), **« le cardinal Lavigerie, documents inédits sur le conflit entre le cardinal et Mac mahon »**, R.H.M, 2eme année ،N°1, Mars, 1925، p 428

الاستعماريين "لكي تخضع لنا منطقة القبائل معنويا، علينا أن نعرف تاريخها، عاداتها، أعرافها للتمكن من الحكم عليها و فهم طباع من يجب علينا ربطهم بفرنسا بشدة " (1) .
و لقد تأخر غزو هذه المنطقة لعدة أسباب استراتيجية ، لعل أهمها هو التضاريس الوعرة ، الكثافة السكانية الكبيرة في هذه المناطق و "الطابع العدائي لساكنة هذه المناطق للغرباء المَقرُونِ بالكره الديني الذي يكنونه للمسيحيين الذين يجهلون لغتهم ، قوانينهم و عاداتهم" (2) .
ومنه بدأ التفكير جِدِّيًا باحتلالها، ففي هذا الشأن يقول **Liorel**:" من 1830 لغاية 1857 لم نحتل فعليا منطقة القبائل، و بقي القبائل في استقلالية مثيرة للقلق، هذه الاستقلالية هي التي يجب تحطيمها إن كنا نريد الغزو الكلي للجزائر(3). رغم أن هذا الإداري محسوب على التيار القبائلوفيلي Kabylophile ، إلا أن ذلك لم يمنعه من إبداء رغبته الصريحة في تدمير منطقة القبائل لإرساء دعائم الحكم الاستعماري في الجزائر.
و في هذه المرحلة بدأ الترويج لما سمي " بالوهم القبائلي " ، رغم أن هذه الفكرة قد سبق إليها الراهب " راينال " سنة 1826 ، حيث ركز على الخصوصية البربرية ،كاللغة الأصيلة و الفقيرة جدا ، و الاستقرار على الأرض لهؤلاء السكان الجبليين ،و الحب الشديد للحرية ، كما أسس للمواضيع الرئيسية التي سيرتكز عليها الوهم القبائلي لاحقا " الأصل النوردي Nordique للبربر ، باعتبارهم ينحدرون مباشرة من الوندال ، وسيمو الملامح ، بعيون زرقاء و شعر أشقر والتدين الفاتر المزعوم المستبدل بإجلالهم للمرابطين ، واستقلاليتهم المطلقة التي طالما تنعموا بها "(4) .
وبدأ التركيز على إظهار التمايز بين العربي و البربري القبائلي بالخصوص، و ذلك بمحاولة التأسيس لفكرة أن الشعب القبائلي أوروبي الأصل و هو بذلك أقرب إلى الحضارة من ذاك العربي الذي ، في نظرهم يصعب جلبه إلى حظيرة التقدم و الرقي بسبب تدينه المتطرف ، وفي هذا يقول العسكريان "فابار" و "دوما": "الشعب القبائلي في جزء كبير منه، جرماني الأصل، بعد ما عرف المسيحية، لم يتغير كثيرا مع ديانته الجديدة"(5) ".

---

1 Liorel (jules) : **Kabylie du Djurdjura**, paris, Ernest Leroux éditeur, 1898 , p 26
2 Tocqueville A**, lettre sur l'Algerie**,http://bibliotheque.uqac.uquebec.ca ,p 5
3 Liorel (jules) : **Kabylie du Djurdjura**,OP.CIT , p 526
4 Ageron Ch R : OP.CIT , P 268
5 Ageron Ch R : OP.CIT, P 269

ولقد تقاربت الرؤى والتقارير حول سمات ساكنة هذه المنطقة إذ أجمعت أغلب الدراسات على وصف القبائلي بسمات خاصة فيقول " لادي هربرت " : " عِوض "العربي" الملفوف في برنوسه و القابع على باب مقهى أو على مدخل خيمته و الخامل دائما، وجدنا أنفسنا عند جنس عامل (يقصد القبائل) ، صبور ، مثابر ، يمارس الزراعة ، قنوع ، يكره حياة البداوة ، يحب منزله ، متعود على الأعمال الشاقة و يُظهر إتقانا مذهلا للفنون الصناعية ،... لا تثبط عزيمته العراقيل التي يواجهها، يحب جباله بشغف ، مضياف و حريص على الغرباء، و لكنه لا يقبل بمن يشتمه أو يسيء معاملته ... و هو عادة لا يتزوج إلا بامرأة واحدة و يحب أولاده كثيرا، و مكانة المرأة عنده متدنية... و هو شديد الغيرة على زوجته و الويل لها إن كلَّمت رجلا أو نظرت إليه ... و استقبال غريب بين أفراد العائلة في البيت يمثل علامة صداقة و ثقة يقدمها رب العائلة للضيف...و القبائلي يبدي احتراما كبيرا للقانون وللسلطة وخاصة القانون العرفي"([1]).

و في وصف آخر لباحث آخر :" إذا كان "العربي" رحَّالا ، فإن "القبائلي" على العكس ، مقيم (مستقر) و يبني مساكنَ ثابتةً تجتمع في قرًى على قمم الجبال كأنها أعشاش النسور و ذلك للاحتماء بها ضد الأعداء "([2]) .

من خلال هذه الدراسات و غيرها، حاول هؤلاء البحاثة أن يتحرَّوا الصدق في تقاريرهم قدر الإمكان و ذلك نظرا لما تُمليه الضرورة العسكرية التي تقتضي وصف أدق التفاصيل عن هذا المجتمع "**العدو**" الذي يجب ترويضه لابتلاعه ثقافيا و حضاريا و عسكريا.

و لقد تعمَّقت الدراسات لتشمل الأصول العرقية و الصفات الفيزيولوجية للقبائل. و في هذا الشأن، عادة ما يوصف "القبائلي" بكون " لون بشرته فاتحا يميل إلى الأحمر أو الأشقر أو الأصهب ، له أطراف قوية و هو في ذلك يشبه الأوروبيين ...بينما المقارنة مع "العربي" فلا مجال للشك "([3]). بمعنى أنه يوجد شبه كبير بين القبائل و الأوربيين من حيث الخِلقة بينما مع العرب فلا يوجد أي شبه بنظره.

من خلال هذه الدراسات، نلاحظ أن التقارير قد ركَّزت على الخصائص الثقافية التي تتميز بها منطقة القبائل مقارنة بالمناطق الأخرى، و ذلك من حيث اللغة و العادات و

[1] Herbert lady, **Algérie contemporaine illustrée**, Victor calmé, rue des saints pères, 76 Paris, 1881, PP 178-184

[2] A pomel, **des races indigènes de l'Algérie, arabes kabyles maures et juifs**, Oran, typographie et lithographie veuve dagorn, Rue trobriand 28,1871 ,P 51

[3] A pomel : OP.CIT , P 48

التنظيم السياسي و الاجتماعي و لعل أهم ما يمكن استخلاصه هو عقدهم الدائم للمقارنة بين **"القبائلي"** المستقر على الأرض « **sédentaire** » و **"العربي"**البدوي الرحَّال« **nomade** » و ذلك دون التفريق عند**"العرب"** بين **"حضرهم" و "بدوهم"** و هذا ما يثير بعض التساؤلات حول هذه الدراسات و ما يعتبر خطأً منهجيا جسيما.

أما من حيث تعامل الإدارة العسكرية مع **"القبائل"** فكان عبر ما سُمِّي **"بالمكاتب العربية"« bureaux arabes »**و لم يكن يختلف في شيء عن تعاملها مع بقية الشعب الجزائري، إذ مارست معه مختلف أساليب القمع و التقتيل و التجويع و الترويع و سلب الأراضي و إفقار السكان و اضطرارهم إلى النزوح من قراهم لطلب لقمة العيش أو الهجرة إلى فرنسا أو النفي إلى مستعمرات فرنسا النائية و خاصة بعد انتفاضة 1871 التي قادها شيخ الطريقة الرحمانية " **المقراني**".

إذن في هذه المرحلة من الاحتلال الفرنسي و التي تميَّزت بمحاولة إرساء دعائم النظام الكولنيالي و بسط سيطرته على كافة مناطق البلاد ، نلاحظ أن الدراسات الاثنولوجية و الاثنوغرافية قد ركَّزت على التمايز الذي يطبع المشهد الثقافي الجزائري بين **"عرب"** و **"قبائل"** من حيث الواقع و المعاش السوسيولوجي دون أن يكون ذلك حافزا للإدارة العسكرية آنذاك لانتهاج سياسة خاصة إزاء **"القبائل"**، إذ كانت يد القمع و التقتيل لا تستثني أحدا من " **الأهالي المسلمين** " كما تسميهم أدبيات الإدارة العسكرية آنذاك، رغم تلك المحاولات بإقامة مدارس لاستقطاب أطفال **"القبائل"** ،وجعل المدرسة أداة طيعة في يد الادارة الاستعمارية لتطبيق سياستها الكولونيالية و ذلك نظرا للدور الخطير الذي تلعبه المدرسة في نمذجة البنى الفكرية للناشئة و ترويض عقولهم ليسهل إدماجهم فيما بعد و في هذا يقول أحد منظري الاستعمار: "عندما يرى القبائلي أنه في المدرسة نتعلم حرفة تُدر أرباحا طائلة، و أننا نُكوّن مزارعين مُؤَهلين لممارسة كل أنواع زراعتنا ، سيكون الأول من يبعث إبنه عند المدرس الفرنسي ... بإمكان القبائلي أن يخدمنا كثيرا ، باعتبار مصلحته في تنمية وسائل عيشه الحسن ، و سيندمج بقوة و بصفة حميمية مع حياتنا ، سيتبنى عاداتنا ، و سيفكر مع مرور الوقت مثلنا ، و سيصبح متسامحا تجاهنا ، هكذا فقط يمكن أن تكون مهمة إدماجه منتهية "([1]) . و لقد ركزت هذه المدارس على تعميق الهوة بين مكونات الشعب الجزائري بالتأسيس الممنهج

[1] Liorel (jules) : OP.CIT ,P 526

لسياسة تفريقية بين العرب والبربر وذلك بصياغة مناهج مكيفة لغرض الإدماج وفي هذا يقول جول ليورال: "بكلمة واحدة، يجب أن نعلمهم حوليات بلادهم التاريخية، منذ العصور القديمة إلى يومنا هذا، كي يتفطنوا لكون العرب هم من اضطهدهم، وأننا الأكرم والأقوى من غزاتهم ... هذا ما يجب أن يكون قاعدة للتعليم التاريخي... تلك هي الطريقة المثلى الواجب اتباعها بصفة عامة لتقريبهم منا، بفصلهم عن العرب وذلك باستغلال كرههم واحتقارهم للبدو الرحل"([1]) ، ولكن هذه المدارس لم تنجح لكونها كانت موجهة لأبناء من كان مواليا للإدارة الفرنسية من "**قياد**" و"**باشاغات**" أما السواد الأعظم من الشعب فلم يتحمَّسوا لتدريس أبنائهم في تلك المدارس وذلك نظرا: أوَّلا "لكون العربية ما زالت تفرض نفسها لدى القبائل لِشرف المنزلة التي تحتلها كلغة للوحي ، ونظرا لكون التَكلُّم بها يرفع من الاعتبار لدى القوم ، و هذا ما يفسر دوام و استمرار وجود المدارس القرآنية شبه السرية في العائلات و القرى المسماة " مرابطية" في منطقة القبائل"([2]) ، وثانيا مَخَافَةَ التعرض للمسخ الهوياتي ، وثالثا لحاجتهم لكل يدٍ عاملةٍ تساهم بقسطها في أداء عملها في البنية الكلية لخلية النحل (العائلة الممتدة).

منطقة القبائل في الفترة الثانية من الغزو(الحكم المدني –التبشيري):

مباشرة عقب الحرب البروسية- الفرنسية 1870 و سقوط النظام الإمبراطوري، تولى المدنيون مقاليد الحكم .و بدأت الانتقادات تتوالى على الإدارة العسكرية السابقة وما اقترفته من أخطاء جسيمة و"**قاتلة**" في تسييرها لشؤون المستعمرة وبخاصة في منطقة القبائل، التي انتفضت في وجه الاستعمار عدة مرات وكادت أن تُقَوِّض أركانه سنة **1871**. و في هذا الشأن يقول **(Liorel jules)** وهو من عشاق منطقة القبائل (**kabylophile**): "إن الخطأ يرجع في المقام الأول إلى الإدارة (يقصد العسكر) التي لم تميز في تعاملها بين "القبائل" و "العرب"([3]) , و يَخْتِم تحامله على العسكر بنصيحة وجَّهَها

[1] Liorel (jules) : OP.CIT , P 566
[2] Ageron charles R : OP.CIT , P 884
[3] Liorel (jules) : IBID

للإدارة المدنية الجديدة: "يجب ألا نخلط بين "العربي" و "القبائلي"، و يجب ألا نعاملهم بنفس الطريقة "[1] .

ويذهب أبعد من ذلك ، ثلاثين عاما بعد انتفاضة **1871** ، بالقول أن" القبائلي ذلك القنوع، النزيه، المثابر، المقتصد، والذي عَبْر كل الأزمنة عرف كيف ينتج فوق هذه الصخور، وسط هذه الأدغال و الأشواك ، محاصيل انتزعها لطبيعة شِحِّيحة ، سيصبح العنصر الأمثل للاستيطان... وسيصبح "القبائل" العنصر الاستيطاني بامتياز، و الذي ينبغي استغلاله لنجعل من الجزائر فرنسا حقيقية"[2].

و من هنا نلاحظ أن منظري الإدارة المدنية قد وضعوا إستراتيجية بعيدة المدى لإحكام السيطرة على الجزائر بالتركيز على العنصر "**القبائلي**" الذي يمثل في نظرهم العنصر الأمثل للنهوض بالزراعة والصناعة التي تحتاج إلى اليد العاملة الخبيرة التي يفتقدها المعمِّرون « **les colons** » وحتى المزارع والمصانع في فرنسا الوطن الأم، "فلقد أوصى رئيس البعثة المالية القبائلية "آيت مهدي" منذ 1899 بهجرة العمَّال المزارعين "القبائل"...فنجد أن المئات من القبائل قد وصلوا إلى فرنسا بين 1906-1907 و ذلك لكسر إضراب العمَّال الإيطاليين الذين يشتغلون في معاصر الزيتون ومعامل التكرير في مرسيليا"[3])، وهذا استنادا إلى عدة دراسات أنثربولجية أُجريت على سكان منطقة القبائل والتي ترى أن "القبائلي لا يخشى الذهاب خارج مواطنه طلبا للعمل لسد حاجيات عائلته "[4].

و هو بذلك يُقدِّم العنصر الأمثل لاستيطان هذه الأراضي الشاسعة بالمزارعين الأكفاء بدل "**العرب**" الذين لا يتقنون فن الزراعة، و بدل **الآسيويين** أو **المارونيين اللبنانيين** أو **اليهود** الذين تعرضوا للمضايقات في روسيا و الذين تمَّ اقتراحهم لاستجلابهم إلى الجزائر لتوفير اليد العاملة ولكن تمَّ الاستغناء عنهم مخافة إثارة القلاقل مع السكان الأصليين.

من هنا بدأت تطفو على السطح ملامح إستراتيجية جديدة ذات وجهين تُجاه **"القبائل"** وذلك لأغراض اقتصادية بحتة، ورغبة في تحقيق إدماجهم في النسيج الحضاري الفرنسي **بالمثاقفة** والتعليم والتعامل التجاري والاقتصادي ، الذي مع الوقت سيُخَفِّف

[1] Liorel (jules) : OP.CIT , P 536
[2] Ibid , PP 530-543
[3] Ageron Ch.R : OP.CIT , P 865
[4] A pomel : OP.CIT , P 56

من حدة العدائية التي يُكِنُّونها للفرنسيين و للمسيحيين .و لقد شرعت الإدارة الاستعمارية في سَنِّ ترسانة من القوانين لنزع الملكية و مصادرة الأراضي، خاصة بعد انتفاضة 1871، هذا بالإضافة إلى محاولة **تفكيك العائلات الممتدة** بفرض سجل الحالة المدنية على كافة الجزائريين، وذلك نظرا لكون النظام الاجتماعي يرتكز أساسا على العائلة ، ثم **لتسهيل نقل الملكية من القبيلة إلى العائلة ثم إلى الفرد** لتسهيل عملية البيع أو المصادرة و ذلك بغرض اقتلاع **"القبائلي"** من أرضه و قطع كل الجذور التي تربطه بها.

و في هذه المرحلة ، تمكنت الكنيسة من افتكاك الترخيص بالنشاط الحرّ في الجزائر عامة و في منطقة القبائل خاصة بعد أن كان نشاطها حكرا على بعض الأعمال الخيرية .و هنا نسجل تحالفًا بين الإدارة و الكنيسة و الإعلام ، فيقول الصحفي **André Servier** وهو من الماسونيين :" يجب علينا في كل مرة نستطيع ذلك ، أن نقسِّم الكتلة الأهلية bloc indigène، أن نُفَكِّكَها و أن نَعزِل كلَ عنصرٍ على حِدَة ،علينا أن نقوم بالإدماج الفردي بانتزاع أحسن العناصر من الكتلة البربرية (يقصد القبائل) ...والمدرسة اللائكية لم تُوفَّق في ذلك ، فلنَدَع "الآباء البيض " يَتَوَلَّوْنَ ذلك"[1].

و بذلك أُطلِقَ العنان للمبشرين للتنظير **لمنطقة القبائل** و محاولة بناء صورة نمطية عنها لخدمة مشروعهم التنصيري . و في هذا الشأن يقول القسّ **Baunard** في وصف منطقة القبائل:" إنها منطقة رباعية الأضلاع، تمتدُّ على مساحة 900 ألف هكتار في الضِفَّة اليمنى لوادي " يِسَّر Isser" قبل " دَلَّس Dellys " حتى "بجاية" على امتداد ساحل البحر المتوسِّط ، إلى "سور الغزلان Aumale " و"سطيف" جنوبا... إنَّه عِرْقٌ مُدهش له اسمه، تاريخه و مميزاته. لم يتغير منذ 15 قرنا. عِرْقٌ مختلف تمام الاختلاف عن العرق العربي الإسلامي من حيث اللغة، العادات، الحياة المدنية والدينية. هذه الفئة أعرضت عن مقاتلة العربي و لكنها لم تنقطع عن كرهه ، إنه عرق كان سَلَفًا مسيحيا جعل من هذه الجبال حصنا لعقيدته و التي يرى فيها "لافيجري" مبعثا للكنيسة الإفريقية " [2].

ومن الجدير بالذكر أن فرنسا المسيحية أرادت بعث أسطورة القبائل المسيحية و إبراز هذه المنطقة ككيان متميِّز عن المناطق العربية بالجزائر. فنجد أن الكاردينال

[1] Ageron Ch R : OP.CIT, P 887

[2] Baunard(M), **le cardinal lavigerie**, T1, librairie poussielgues, Paris, 1898, PP 399-400

"لافيجري" يرى في "ساكنة منطقة القبائل مجتمعا قابلا للتَنَصُّر كون أصولِه مسيحيةً و يتمسك بعاداتٍ و تقاليدَ مسيحية بارزة كرَّستها الدراسات الأنثروبولوجية "[1] .

ويضيف في موضع آخر قائلا: "يوجد في الجزائر شعبان، بالأحرى عرقان، من جهة هناك البربر أو القبائل وهم السكَّان الأصليون ، و من جهة أخرى العرب وهم الشعب الغازي . فمنذ حلولنا بالجزائر لاحظنا أن القبائل يكرهون العرب الذين سيطروا عليهم بالقوة. و لقد فرض العرب عليهم القرآن و تعاليمه ، و هم في الحقيقة لاتينيون و مسيحيون قدامى. وحتى إن لم يكن مستحيلا إيجاد بعض الآثار المسيحية في ثنايا عاداتهم ، فإننا نؤكد أنهم كانوا أبناءًا للذين درَّسهم القديس "أوغسطين" "[2] ، و هو بذلك يحاول أن يؤسِّس لفكرة الكيان القبائلي المنفصل عن باقي المناطق الجزائرية، لقد كان من أشد المنتقدين للنظام العسكري الذي بنظره لم يُفَرِّق بين **"القبائل"** و**"العرب"** حيث يقول: "و عِوَض ذلك (ويقصد عِوَضَ نشر المسيحية)، فإننا لم نُميز بين " العرب" و "البربر" (يقصد القبائل) ، و ضربنا الإثنين معا، و بالتالي وحَّدنا صفوفهم لمواجهة عدوٍّ واحد هو نحن، و هذا ما تمثل جليا في ثورة الإخوان الرحمانيين سنة 1871 "[3] و هو يقصد ثورة المقراني.

ولقد حاول هؤلاء المبشرون أن يُروِّجوا لمجموعة من الأوصاف الخاصة **بالقبائل**، وذلك محاولة منهم تعميق الهوة بينهم و بين إخوانهم في الوطن **"العرب"** بوصفهم غزاة ومعتدين ومحاولة تقريبهم من الجنس الأوروبي المتحضر انطلاقا من المركزية الإثنية الغربية. فلقد وصفوا **القبائل** بالتسامح الديني، وحب العمل، والتفتُّح الفكري، وهم بذلك أقرب إلى الفرنسيين وفي ذلك يقول الجنرال «**Daumas**»: " كلما حفرنا هذا الجذع القديم، وجدنا تحت القشرة الإسلامية الأصول المسيحية. وعند ذلك ندرك أن القبائلي القديم كان مسيحيًا و لم يتحوَّل كُلِّيةً إلى دينه الجديد"[4] بمعنى الدين الإسلامي.

ولقد حاولوا توظيف التاريخ لاستنهاض الروح المسيحية لدى **"القبائل"** باعتبارهم كانوا مسيحيين قبل مجيء **"العرب"**.و لقد تكثَّفت الإرساليات التبشيرية إلى هذه المنطقة لإعادتها إلى الحظيرة المسيحية. فنجد مثلا الدكتور « **Warnier** » من الذين "نادوا

---

[1] Baunard(M) : OP.CIT , P 553

[2] Renard(edmond), **le cardinal Lavigerie**, Ed spes, Paris,1926 , PP 129-130

[3] Lavigerie (CH) , **œuvres choisies**, T2, librairie poussielgues, Paris, 1884 , P 404

[4] Goyau G , un grand missionnaire : le cardinal lavigerie , librairie plan, Paris,1925 , P 268

بتنصير "القبائل" و من المشجعين لخلق كيان قبائلي مستقل ، بحيث اعتبر البربر (القبائل) هم السكان الأصليين للبلاد ، و رغم كونهم تقبَّلوا الدين الإسلامي، إلا أنهم يبدون استعدادا كبيرا للرجوع إلى المسيحية"(1) ..

كما حاولوا في كل كتاباتهم التركيز على العامل العرقي، بالتأكيد على تمايز الجنسين "**العربي**" و"**البربري**"، لكنهم اختلفوا فيما يخص أصل الجنس البربري، فنجد مثلا « **George Elie**و هو إداري سابق يرى أن "**البربر**"ينحدرون من الشعوب الشمالية « **Nordiques** لكون الكثير منهم شقر و عيونهم زرقاء. و هم لا يختلفون بذلك عن القرويين الفرنسيين من حيث حب العمل و الدقَّة فيه و حب الأرض و اكتسابهم لمفهوم الاقتصاد و الصراحة والذكاء. ويذهب أبعد من ذلك حين يقول :" خذوا أية جماعة بربرية (و هو يقصد القبائل) و انزعوا من أعضائها البرانس و ألبسوهم اللباس الأوروبية فإنكم ستجدون أمامكم مجلسا بلديا يتكوَّن من فرنسيين"(2) .

في حين أن الكاردينال "لافيجري"صرّح أن "القبائل" والفرنسيين ينحدرون من سلالة واحدة و هي سلالة الرومان "(3). وهنا نلاحظ تضاربا في دراساتهم و رؤاهم حول أصل "**القبائل**" .أما أستاذ الحقوق بجامعة الجزائر « **Charveriat** » فيرى: "أن القبائل خليط من أجناس اندثرت تحت وابل الأحداث. هذه الأجناس امتزجت لتشكِّل مزيجا في غاية التماسك مثل صخور الغرانيت "(4) ، و هذا الخليط في نظره متكوِّن من إنجليز وباسك ونورمانديين (نرويج) ومصريين . و في نفس السياق يقول "**ماسكوري** " : "ولكن وجوههم (و هو يقصد القبائل) مختلفة إلى درجة يصعب التكهُّن بمن كانوا آباءهم ، فالجرماني يصطدم بالروماني و الكنعاني بالهندي والعربي" "(5) ، انطلاقا من هذه التوصيفات نستنتج أن "**القبائل**" في نظر هؤلاء الفرنسيين ، جنس هجين و ليس جنسا صافيا و هنا نلمس هذا التناقض الصارخ مع دراسات سابقة ترى أن " **القبائل**" هم أكثر القبائل البربرية التي حافظت على نقائها العرقي نظرا لكونها لم تتعرض لأي غزو

---

[1]Ageron Ch-R.: **« l'Algérie algérienne , de napoléon lll à de gaulle** » ,sindbad , 1980 - P 270

[2] Elie G : **la Kabylie du Djurdjura et les pères blancs**, ED Louis de Soye, Paris, 1923 , P 23

[3] وعلي م ، **التعليم التبشيري في الجزائر[1830-1904]، دراسة تاريخية تحليلية** ، منشورات دحلب، الجزائر،1997 ، ص 58

[4] Charveriat (François) : **à travers la Kabylie et les questions kabyles**, paris, librairie plon. 1889 , P 130

[5] Liorel (jules) : OP.CIT , P 2

عسكري مباشر منذ الرومان حتى الفتح العربي ، إذ بالرغم من كونهم مسلمين إلا أنهم بقوا أحرارا ، و حافظوا على بناهم الفكرية ، الاجتماعية و السياسية و بخاصة على لغتهم الأصلية التي تمثل علامة لتميُّزهم واستقلاليتهم.

الاستنتاجات و الخلاصات:

1- إن أولى الملاحظات التي يمكن استخلاصها هي إن تعامل فرنسا مع منطقة القبائل قد تَدَرَّج عبر ثلاث مراحل ، مرحلة الاستكشاف (مرحلة ما قبل الغزو) ، مرحلة الاكتشاف (مرحلة الحكم العسكري)، ثم مرحلة تسخير البحوث العلمية لتحقيق الإستراتيجية الكولونيالية (مرحلة الحكم المدني).

2- لم يكتف الاستعمار الفرنسي بالغزو العسكري لتكريس تواجده وفرض هيمنته على الجزائر،بل وظف استراتيجيات شتى و منها استراتيجية توظيف الصراع الدائم بين مختلف القبائل المكونة لمنطقة القبائل و ذلك لتفتيتها و تفكيك بنيتها الاجتماعية التي تعتبر "أكثر المؤسسات البشرية صلابة "([1])

3- لقد حاولت الإدارة الاستعمارية أن تبقي على المؤسسات الاجتماعية في منطقة القبائل وذلك لتفادي الصدام مع القبائل ونظرا لكون هذا النظام يمثل آلية تنظيمية صارمة تتحكم في جميع سكان القرى، و بالتالي التحكم فيها سيسمح بالسيطرة على المنطقة بأكملها ، فتدخلت السلطات في إحداث بعض التغييرات، وذلك بتعيين "خوجة" لكل "ثاجماعث" يتولى جمع الضرائب. و لكي تحافظ على التوازنات الهشة بين مختلف العائلات والصفوف في القرية ، فإنها استحدثت منصب "لوكيل" من الصف الخصم المعادي للصف الذي ينبثق منه " لمين ثاجماعث " ، كما اشترطت أن يعين على رأس كل " خروبة " ما يسمى " بالطامن " من طرف " لمين " الجماعة، و"عاقل" من طرف "لوكيل" ، ليحضروا مداولات الجمعية العامة ، لتتحول بذلك مؤسسة " ثاجماعث" العريقة إلى مؤسسة إدارية بحتة ، مع التركيز على العائلات الكبيرة و العريقة .داخل بنية القبيلة أو العرش حاول الاستعمار أن يوظِّف الصراع الدائم بين **"الصف العلوي"** و **"الصف السفلي"** الذين يُكوِّنان البنية التقليدية لجميع قرى منطقة القبائل و كثيرا ما تمَّ الاستثمار في استقطاب قادة القبائل الموالين لفرنسا لاستغلال وضعهم للتأثير على القبائل التي لم تخضع بعد للاحتلال الفرنسي.

[1] Tocqueville A : OP.CIT , P 11

4- داخل القرى القبائلية حاول الاستعمار أن يوظّف كذلك التركيبة البشرية المتكونة غالبا من طائفة " المرابطين " و باقي ساكنة منطقة القبائل و ذلك بتوظيف فئة "المرابطين" إذ أن" غالبية القيادات التي تم تعيينها في الفترة الممتدة ما بين 1840 و 1895 كانوا من فئة "المرابطية" ، ربما الاستثناءات الوحيدة كانت تفرض نفسها بقوة السلاح ، و هذا ما دفع جنرالات الجيش إلى توخي الحذر من اندلاع الانتفاضات و المرونة في التعامل مع الأوضاع ... و غالبا ما ينتظرون الموت الطبيعي لقيادات العائلات الكبيرة " اللائكية" ليتم استبدالها بشخصيات " مرابطية""[1]. وفي هذه النقطة بالتحديد لاحظنا أنَّ وصف القبائل "**باللائكيين**" ناتج عن هذا التقسيم المنهجي بين فئة " المرابطية " وباقي العائلات القبائلية غير "المرابطية" دون أن يكون لهذه التسمية أية علاقة بمفهوم اللائكية المتداول في الحضارة الغربية.

5 - إنشاء ما سُمِّي "**بالمكاتب العربية**" و التي انتهج ضباطها سياسة " القبائل و العروش" و ذلك بالاعتماد على طائفة " المرابطية" التي تعرف المنطقة حق المعرفة و وضعهم في وجه العائلات القبائلية الكبرى غير "المرابطية" و التي وُصفت باللائكية . و نظرا لكون هذه الطائفة تتقن العربية قراءة وكتابة، فهذا ما يُفسِّر لماذا تمَّ تعريب معظم أسماء العائلات و القرى و الأماكن و الوديان و الجبال و البنى الاجتماعية و حتى أسماء القيم التي تفتخر بها هذه المنطقة. (آث أصبح بني ، أذرار أصبح جبل ، إغزر أو ثاسيفث أصبح وادي ، قيم النيف و الحرمة إلخ) و هذا ما عزّز السلطة المعنوية لهذه الفئة بامتلاكها و تدوينها لتاريخ المنطقة و العائلات "و سمح لها باستعادة وجودها السياسي الذي فقدته"[2] و" لقد ساهمت المكاتب العربية بقوة في المهمة الكارثية ، المتمثلة في السلخ الهوياتي (débérbérisation) للقرى القبائلية ..... لقد كان على رأسها ضباط فرنسيون حافظوا على تحّكُمهم المحكم بواسطة التأسيس لنظام السطو المُمَنهج وإثارة الانتفاضات المدبَّرة و ذلك لتبرير مصادرة الأراضي والقتل و الجباية لدى القبائل المنتفضة"[3]، و بالمقابل نجد أن" التعريب قد خطى في هذه المنطقة (منطقة القبائل)

[1] Ageron CH R : OP.CIT , P 39

[2] Tocqueville A : OP.CIT , P 6

[3] Violard (e), **les villages algériens,1870-1890**, 2 tome, imprimerie administrative victor heintz, Alger, 1926 , P 10

خطوات جبارة و ذلك بإقحام نظام إدارة بالعربية « administration à l'arabe » "[1]، إذ كان ضباط (هذه المكاتب) يعتبرون أنه يتعيَّن التحدُّث بالعربية دون تمييز في كامل شمال إفريقيا ، حتى أن بعض العقول التي تشربت بالمقاربة الاستشراقية القديمة، "يتحدثون عن التعريب كمرحلة أوَّلية لحملة التمدين و التحضير المتبناة حيال الشعوب البدائية ... و لا يجب تعليم الفرنسية لهذه الجماعات البربرية (القبائل) إلا بعد مرحلة تعريبهم[2].

6 – لقد تم التأسيس لسياسة (السياسة القبائلية) تقوم على الاحتفاظ بالأشكال الجمهورية للقبيلة، و ذلك بتفويض السلطة لأمناء القبائل و الاستغلال المحكم لِمُعْطَى " **الصَّف**" في كل قبيلة علما أن في كل قرية نجد صَفَّين "**صف علوي** " و " **صف سفلي**" ، و كذا استغلال نفوذ العائلات الكبيرة ، و احترام القوانين العرفية القديمة للمنطقة و التي باعتقاد الفرنسيين ، أنها لا تتعارض في أي حال من الأحوال مع روح قانونهم العام. ففي أمرية 3 ديسمبر 1859 أمر الماريشال " **راندون**" بالحفاظ على القوانين العرفية القبائلية مع تنقيتها من بعض البنود البربرية في إشارة إلى أحكام الشريعة ، و لكن بالمقابل هنالك من كان يرى أحكام الشريعة الإسلامية أكثر إنسانية من هذه القوانين العرفية منهم "مدير الشؤون الأهلية « **Luciani**»و هو من المستعربين الذي يعترف سنة 1916 أنه لا يُكِنُّ لعادات القبائل المليئة بالخرافات و البربرية سوى الاحتقار وأنه مقارنة بهذه العادات، فإن الإسلام يمثل مرحلة أرقى من التحضر"[3]

7 - لقد قامت الإدارة الاستعمارية بتقسيم المنطقة إداريا و ذلك لتسهل عملية التحكم في الأهالي و لتفتيت منطقة القبائل وزرع الفرقة بين هذه الكيانات الإدارية و في هذا يقول حسين **آيت أحمد** :" نعلم يقينا أن تسمية "القبائل الصغرى" و " القبائل الكبرى" ما هي إلا تسميات جزافية و ضعتها الإدارة الاستعمارية سعيا منها لتقسيم سكان واجهتي جبال جرجرة "الشمالية والجنوبية"، هذا التقسيم قد ألحق منطقة الصومام بمقاطعة قسنطينة"[4] ، و ذلك ما يؤكده « **Morizot** » في قوله : إن جبال جرجرة تشق منطقة

[1] Liorel (jules) : OP.CIT , P 223

[2] Le glay,**l'école française et la question berbère** , direction générale de l'instruction publique , des beaux arts et des antiquités , rabat, 1921, P 11

[3] Ageron , CH R : OP.CIT , P879

[4] H.Ait Ahmed, **mémoires d'un combattant ,l'esprit d'indépendance 1942-1952**, sylvie messinger editeur, paris, 1983, P 71

القبائل المتجانسة اجتماعيا و لغويا و تقسمها إلى منطقتين في غالبية الأحيان متعاديتين، الأولى تصد واجهتها للجزائر و الثانية لقسنطينة. و نحن من سمَّينا الأولى "القبائل الكبرى" و الثانية" القبائل الصغرى" ، و نظرا لكون هذه البلاد معروفة بجبالها المتشابكة اضطررنا للتمييز في " القبائل الكبرى" بين " القبائل العليا " و " القبائل السفلى" و في " القبائل الصغرى" بين قطاع " الصومام " و قطاع " ڤرڤور"[1] و لقد زرعت الفتنة بين المنطقتين بغرس فكرة أن القبائل الصغرى أكثر تدينا و تعربا و كذا التسويق لفكرة أن القبائل هم الفرع الأسمى من على باقي الفروع الأمازيغية من شاوية و توارق و مزابية الخ .

8 - لقد أوغل البحَّاثة والكتَّاب ، في الوصف الأسطوري لهذه المنطقة بمحاولة التأسيس لعلاقة تضاد بين الجنس القبائلي المقيم في الجبال ، و بين الجنس العربي المنتشر عبر السهول و الهضاب. و ادعوا أنهم قد وجدوا أو اكتشفوا في الشعب القبائلي الذي يعتبرونه من أصل جرماني ، آثار تَشَرُّبِ هذا المجتمع بالقيم المسيحية ، كحب العمل و تقديسه ، و تقدير المرأة ، و الشغف بالمساواة و الأخوة و التضامن الآلي الخ.....و هذا الشغف بالمساواة يمنعهم من القبول بفكرة الزعيم أو القائد المطلق، و هذا ما استغلَّته الإدارة الاستعمارية بدهاء و حنكة. ونظرا لكون إدارة القرى القبائلية ديمقراطية ، فالحكمة تقتضي المحافظة على نفس نمط الإدارة و ذلك لتجنُّب إثارة القلاقل والثورات ضد الإدارة الاستعمارية و ثانيا لكون هذا النمط أثبت نجاعته في الحفاظ على الأمن و السلم الاجتماعيين في هذه المناطق ربما أكثر مما توفِّره القوانين الوضعية الفرنسية ذاتها. إذن فالنظام القبائلي يستجيب لسياسة واقعية براغماتية وليس لسياسة عاطفية قبائلية « politique Kabylophile »، ولقد سمحت بتفتيت البنى القبلية والقضاء على القيادات الروحية لكل قبيلة.

9 - إنه من المسلَّمات أن مباشرة أية عملية استعمارية تقتضي وضع سياسة ممنهجة تخص الشعب الذي يراد استعماره. والاستعمار الفرنسي لا يشذ عن القاعدة . ولقد لجأ لتوظيف المدرسة لمحاولة صياغة مشروع بعيد المدى ، متعدد الأبعاد ، أولها تغيير البنيات الذهنية للمجتمع القبائلي لإبعاده عن دينه ، ثانيا ليسهل إدماجه في الامة

[1] Morizot (j) : **l'Algérie kabylisée**, cahiers de l'Afrique et l'Asie, éditions j.peyronnet et cie, paris. 1962, PP 34-35

الفرنسية و ابتلاعه ثقافيا وحضاريا . وفي هذا يقول ليورال جول: "لقد بدأت تظهر الأعراض الملائمة و المشجعة، على الأقل مدارسنا أكثر من مساجد الإسلام، ما يسمح لنا بصياغة طموحات جميلة " [11] **(Liorel jules :1898 ,16).** ولقد عملت على تشكيل نخبة قبائلية تولت مهمة التدريس، وشكلوا وقودا للحركة الوطنية والحركة النقابية والطلابية ، و انخرط معظمهم في الحركات اليسارية العمالية ، حتى ظهرت الأحزاب الوطنية التي تبنت أطروحة استقلال الجزائر وظهرت معها ضرورة وضع تصور للدولة الجزائرية المستقلة ، لتظهر أول تجليات التباين الهوياتي للدولة الجزائرية، وهو ما عرف بالأزمة البربرية، التي كان على رأسها مجموعة من الشباب المتعلم القبائلي، و الذي طرح لأول مرة فكرة "الجزائر الجزائرية ، في مقابل "الجزائر الفرنسية" التي أرادها الاستعمار، و"الجزائر العربية المسلمة" التي أرادها التيار الوطني آنذاك. رغم كل هذا، يمكننا القول في النهاية، أن الاستعمار الفرنسي قد حاول أن يستثمر في الاختلافات العرقية والثقافية للمجتمع الجزائري ، وذلك بمحاولة تقريب القبائل إليه وتفضيلهم بالمدارس ولكن ليس لغرض آخر سوى السيطرة على كامل التراب الجزائري ، و تكريس مبدأ فرق تسد ، و لكن منطقة القبائل لم تساير هذا المشروع. فالسؤال الذي ينبغي أن يُطرح: هل يمكن القول أن منطقة القبائل قد تواطأت مع الاحتلال الفرنسي أم أنها بالعكس كانت شوكة في وجه مخططاته؟ هل عرفت هذه المنطقة نوعا من الامتيازات على الصعيد الاجتماعي والاقتصادي والثقافي واللغوي من طرف هذه الإدارة الاستعمارية التي يفُترض أنها تمارس هذه السياسة القبائلية أم العكس؟ هل كانت هذه المنطقة بمنأى عن آلة التقتيل والإبادة الجماعية للعائلات وتدمير القرى والمداشر وحرق المحاصيل والغابات ومصادرتها ؟ بالعكس لقد عرفت المنطقة مصادرة الأراضي التي أدَّت إلى انتشار المجاعات و هلاك الآلاف. وتعرضت للمضايقات الجبائية الممنهجة والتعسفية من قبل المكاتب العربية وذلك لدفع ساكنتها للانتفاض لتبرير عمليات القمع والتقتيل أو النفي ثم مصادرة أراضي القبائل المنتفضة. وساهمت في تكريس التضاد بين الثنائيتين (عربية-إسلام) و(فرنسية- مسيحية) وأهملت كلية الأمازيغية ومكوناتها رغم الدراسات التي أقيمت هنا و هناك .

[1] Liorel Jules : OP.CIT , P 16

المراجع بالعربية :

1- وعلي م ، التعليم التبشيري في الجزائر[1830-1904]، دراسة تاريخية تحليلية ، منشورات دحلب، الجزائر،1997

المراجع الأجنبية :

1- A Berbrugger,voyage au camp d'abdelkader,bibliotheque royale, Paris,1839

2- A pomel, des races indigenes de l'Algerie, arabes kabyles maures et juifs, Oran, typographie et lithographie veuve dagorn, Rue trobriand 28,1871

3- Ageron Ch R, les Algériens musulmans et la France (1871-1904),T1,PUF,2005

4- Baunard(M), le cardinal lavigerie,T1, librairie poussielgues, Paris, 1898

5- Charveriat (francois) :1889-huit jours en kabylie.a travers la kabylie et les questions kabyles,paris,librairie plon.

6- Ch-r .ageron : 1980- « l'Algérie algérienne »de napoleon lll à de gaulle ,sindbad, ,

7- Elie G , la Kabylie du Djurdjura et les peres blancs, ED Louis de Soye, Paris, 1923

8- Goyau G , un grand missionnaire : le cardinal lavigerie , librairie plan, Paris,1925

9- h.ait ahmed, memoires d'un combattant ,l'esprit d'independance 1942-1952, sylvie messinger editeur, paris, 1983,

10- Herbert lady, Algerie contemporaine illustrée,Victor calmé,rue des saints peres,76 Paris,1881

11- Lavigerie (CH) , œuvres choisies, T2, librairie poussielgues, Paris, 1884

12- Le glay,l'école française et la question berbere , direction générale de l'instruction publique , des beaux arts et des antiquités , rabat, 1921

13- Liorel (jules) : Kabylie du Djurdjura,paris, Ernest Leroux éditeur, 1898

14- morizot(j) : l'Algérie kabylisée, cahiers de l'afrique et l'asie, editions j.peyronnet et cie, paris. 1962

15- Renard(edmond),le cardinal lavigerie, Ed spes, Paris,1926

16- Tocqueville A, lettre sur l'Algerie,http://bibliotheque.uqac.uquebec.ca/index.htm

17- Tournier(CH), « le cardinal Lavigerie, documents innedits sur le conflit entre le cardinal et Mac mahon », R.H.M,2eme année,N°1,Mars,1925

18- Violard (e), les villages algeriens,1870-1890, 2 tome, imprimerie administrative victor heintz, alger, 1926